ثقافة

رحيل

عبد اللطيف شما يغادر الخشبة

لحظة فارقة في تأسيس المسرح الأردني

على مدار ستّة عقود، لم تتوقّف اجتهادات الفنّان والكاتب الأردني الراحل في التمثيل والتأليف والإخراج، كما في التنظير والكتابة حول الفنّ الرابع في الأردن

عمّان ـ **محمود منير**

في عام 1965، قدّمت كلّية العلوم في «الجامعة الأردنية» بعمّان؛ حديثة التأسيس آنذاك، عرضاً مسرحياً بعنوان «أصحاب السعادة الزوجية»، شاركت فيه مجموعة من الطلبة، منهم ميمي خوري وعطاف عواد ووجدي قاسم وعبد اللطيف شما الذي رحل الخميس الماضي. وحده شما (1947 - 2024)، الطالب في السنة الأولى بقسم الكيمياء، سيبقى مشدوداً للخشبة، وينخرط في حالةٍ تركت أثرها على المسرح الأردني، وإن لم يفِها كثيرون حقّها من الدرس والاهتمام.

توزّع النشاط المسرحي في أردن الستينيات بين الكليات الثلاث في الجامعة؛ الآداب والعلوم والاقتصاد؛ حيث كان طلبتها يؤدّون عروضهم في المسرح الوحيد الكائن على أطراف العاصمة الأردنية، إذ لم يصل عمران المدينة إلى جامعتها الأولى بعد، إذا ما استثنينا صالات السينما والمراكز الثقافية الأوروبية التي كانت تعرض أعمالاً مسرحية، ليشكّل هذا الحراك «أسرة المسرح الجامعي» الذي أشرف عليه المخرج القادم من الولايات المتحدة هاني صنوبر بدرجة الماجستير في مسرح كودمان ثياتر، كما كان أحد المساهمين في إنشاء «المسرح القومي السوري» بدمشق، قبل أن يعود إلى عمّان.

ارتبط صنوبر بأسرة المسرح الأردني التي شارك في تشكيلها هواة آخرون خارج أسوار الجامعة، مع وجود تعاونات بين الأسرتين المسرحيتين في تلك الفترة، حيث وجّههم صنوبر لإعداد نصوص لمؤلّفين غربيّين عادة، من أجل تقديمها أمام جمهور تشير العديد من الروايات إلى أنه كان يفيض عن استيعاب مسرح الجامعة الذي يحتوي نحو خمسمئة مقعد.

مرحلة انتقالية

يشير عبد اللطيف شما، في دراسة نشرها عام 1980 بعنوان «المسرح الأردني من أين وإلى أين؟»، إلى أن أسرة المسرح الأردني انتقلت في مطلع السبعينيات من الكلاسيكية إلى الواقعية الملتزمة، كما أنّ عدداً من أعضائها بدأوا تجاربهم الإخراجية الأولى بدعم من صنوبر بعد عملهم في التمثيل سنوات عدّة، مبيّناً أنّ المسرح الجامعي واصل نشاطه مع عودة دفعة من خرّيجي الفنون المسرحية من جامعات عربية وغربية، عبر إخراجهم عروضاً عدّة، وكذلك تأسيس فرقة مسرحية خاصّة مثل «عمّون» و«أضواء الفن» و«فيلادلفيا 76»، وكلّ ذلك قبل بدء تدريس المسرح في قسم الفنون الجميلة بجامعة اليرموك عام 1981.

في حديثه إلى «العربي الجديد»، يستذكر المخرج الأردني حاتم السيد، الذي نال شهادة جامعية من «المعهد العالي للفنون المسرحية» في القاهرة عام 1971، وتسلّم مديرية المسرح في وزارة الثقافة بعد سنوات عدّة، لقاءه الأوّل سنة 1977 مع شما، الذي كان يعمل في أحد المصانع الأردنية ضمن مجال اختصاصه في الكيمياء، لكنّه كان دائم التردّد؛ مشاركاً في عدد من الأعمال التي أنتجتها المديرية آنذاك.

ويلفت إلى حضور مميز لشما، بنشاطه الدؤوب والتزامه، وكذلك بتعدّد مواهبه واهتماماته بين التأليف والإعداد، من خلال مجموعة من المحاولات برزت في نهاية السبعينيات، وكذلك في التمثيل والأخراج، في معظم المواسم المسرحية الأولى التي نظّمتها الوزارة. سيظهر اسم شما ممثّلاً في مسرحية «المأزق» من تأليف بشير هواري وإخراج تيسير عطية ضمن الموسم المسرحي الأول عام 1977، وكذلك في «قناع السعادة» عن نص لجورج كليمنصو وإخراج شعبان حميد.

ويتوقّف السيد عند عام 1987، حين أخرج عملاً مسرحياً أعدّه شما بعنوان «ثمن الظل»، وهو مأخوذ عن نص الكاتب السويسري فريدريش دورينمات «ظلّ الحمار»، وقد عُرض لأوّل مرّة في «المركز الثقافي الملكي» وشهد إقبالاً جماهيرياً، في الفترة نفسها التي أعدّ وأخرج شما فيها مسرحية «سكابا» في سياق اجتهاده لتقديم مسرح يحمل مضامين اجتماعية وسياسية ويكون قريباً من الجمهور.

كما يبيّن السيد أنّ ضعف الأجور التي كان يتلقّاها العاملون في المسرح دفع كثيراً منهم للعمل في حقول مجاورة لتأمين معيشتهم، في إشارة إلى تجربة شما في أعمال تلفزيونية موجّهة للأطفال، لكنّه رغم قسوة الظروف ترك عمله في إدارة إحدى الشركات الصناعية أواسط الثمانينيات وتفرّغ للكتابة المسرحية والإخراج في مسرحياته «روزانا وبناتها يبحثن عن أيوب» و«المنحوس» وغيرهما، بالإضافة إلى كتابة مقالات في الصحف الأردنية والعربية حول المسرح والحركة المسرحية الأردنية ونتاجاتها، بالإضافة إلى إصداره في مرحلة لاحقة دراسات في التربية والفن نشرتها «جامعة القدس المفتوحة»، ووضع برامج تربوية وتعليمية. ويختم السيد حديثه قائلاً: «في بداياته، ضلّ شما طريقه متوجّهاً لدراسة الكيمياء والعمل فيها، لكنّ طاقته واهتماماته انصبّت نحو الآداب والمسرح الذي أخلص له حتى نهاية حياته».

ظلّ مشدوداً للخشبة منذ تمثيله أوّل أدواره طالباً عام 1965

لم تكن الثقافة عنده مجرّد مهنة، بل تعبيراً عن الذات والهوية

تأريخ المسرح الأردني

يُعدّ شما أحد القلائل من روّاد المسرح الذين حرصوا على توثيق تطوّر الفنّ الرابع في الأردن، من خلال سلسلة مقالات ودراسات، وكُتب وضع أوّلها تحت عنوان «المسرح في الأردن» عام 1981، وقد ذهب فيه لتوثيق التعبيرات المسرحية التي سبقت ظهور الخشبة بشكلها الحديث في المدارس والقرى والمخيّمات والبوادي، وكذلك نوادي الاصطياف في مدن فلسطين (إبان الوحدة بين الأردن والضفة الغربية)، وزيارة فرق عربية عدّة للأردن.

في العام نفسه، نشر أيضاً مقالاً بعنوان «بانوراما الحركة المسرحية في الأردن- في عام الثمانين»، الذي يقرأ فيه خريطة المسرح خلال سنة 1980 باعتبارها امتداداً أو تراكُماً لسنوات سابقة، مفتتحاً المقال بملاحظة أساسية تتمثّل بأنّ الازدهار «كان دوماً جهداً مقروناً بمرحلة جديدة تأتي على المسرح مقرونة هي الأُخرى بفردٍ أو نفر من الناس يشتعلون حماسة ثمّ لا تلبث جذوة حماسهم أن تخبو»، محاولاً تفكيك أسباب ذلك بعدم وجود خطط مسبقة لإدارة المسرح الذي بدأ يتأثّر بارتباط المسرحيّين بأعمال تلفزيونية، ليُحمّل الذنب للإطار الثقافي والاجتماعي العام الذي يغذّي الحركة المسرحية.

في هذا المقال، رصد شما الفعل المسرحي في الجامعات والفرق الخاصّة ونشاطات الوزارة والأندية الرياضية والمراكز الثقافية، وعلّق على مضامين العروض وبعض تفاصيلها الفنّية وكيفية تلقّيها بحسب متابعات الصحافة لها، حتى إنّه لم يغفل تدوين العرض المسرحي الذي قُدّم عام 1980 في سجن المحطّة، حيث تأسّست فرقة «محطّة 80» التي قدّمت عدداً من المسرحيات التي كتبها وأعدّها الكاتب هاشم غرايبة الذي كان سجيناً سياسياً بسبب انتمائه للحزب الشيوعي، حيث سجّل شما عناوين العروض المقدّمة في السجن ووصفاً عامّاً لنصوصها الأصلية والممثلين السجناء الذين شاركوا في أدائها.

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

عبد اللطيف شما (1947 ـ 2024)

تصويب

العدد 3653

نجوان درويش

3653 من صفحات 24 و25 (أحياناً تمتد إلى صفحة 26 فتصير ثلاث صفحات) هي ما خرج إلى النور من صفحات الثقافة في «العربي الجديد». كانت معظم صحف العالم تتوقف عن الصدور يوماً في الأسبوع أو أكثر، تتوقف في الأعياد أو في الكوارث، لكن طباعة «العربي الجديد» لم تتوقف يوماً واحداً حتى في الوباء. بقيت تُطبع حتى إعلان آخر مطبعة أنها لن تستطيع الطباعة. وفي الأشهر التي توقفت فيها الطباعة تماماً بقينا نُنتج ونصمّم الجريدة بالحرص نفسه وكأنها ستُطبع في المساء. مرّت سنواتٌ عشرٌ، لم نشعر بمرورها. كبرنا فيها ونزلت الأحلام من السماء إلى الأرض، واختبرنا هذا المدى الذي فُتح لنا واختبرنا قدرتنا على الفعل وتنفيذ ما وعدنا بأننا قادرون على تنفيذه. لحسن الحظ حجم هذه الزاوية هو 1200 حرف فقط، ما يجعلها خفيفة الوطء، أُنهيها سريعاً وأُكمِل «تمرير» مواد الثقافة حتى يجدها الزملاء المُخرجون مُعَدَّةً في موعدها ليطبع العدد الأول من السنة الحادية عشرة. هل لديّ أحلام وأمانيُّ أُعبّر عنها في يوم كهذا؟ لدي أُمنية صغيرة وهي أن أشهد توزيع «العربي الجديد» في بلدان عربية تمنع دخولها منذ سنين طويلة وتمنع رفاقنا كتّاب هذه البلدان من لمس نصوصهم على صفحاتها، وأن نراها في أكشاك الشوارع الفلسطينية التي يعتقد الاحتلال أنه جرفها، في غزّة وجِنين والفارعة ونور شمس... وبالطبع في القدس والخليل وحيفا ويافا وعكّا، وفي كل أرض عربية تُنجز حريّتها وتؤسّس لثقافة الحرية.

شرط الاستدامة

على مدار ستين عاماً، لم يتمكّن الراحل عبد اللطيف شما من استكمال العديد من تجاربه التي توقّفت لعوامل مختلفة، ورغم كل هذه الانقطاعات، حافظ على تفاؤله الذي حكم حديثه في ندوات ومقابلات صحافية ودراسات بوجود كفاءات مسرحية أردنية، ونصّ مكتوب يستحق تحويله لعرض، لكن الطفرات جميعها كانت تنطفئ نتيجة خلل في إدارة المشهد يحولُ دون إزاحته اجتماعياً وثقافياً، بما يضمن استدامة المسرح وتطوير شروط العمل به.

قراءة

حكاية انهيارات عراقية متتالية

مقتل الغد في «وادي الفراشات»

هذه روايةٌ عن عراق مات فيه الأطفال بسبب نقص الأدوية وفقر المشافي سنوات الحصار، وبسبب الظروف غير الإنسانية وغير المواتية لبناء الأسر

سومر شحادة

الزمن في رواية الكاتب العراقي أزهر جرجيس (1973) «وادي الفراشات» قديمٌ نسبياً، ويعود بمعظم أحداثه إلى عام 1999، مع إطلالات على أزمنة أعقبت الاحتلال، حيث تنتهي مصائر الشخصيات. لكنّ حال الشخصية الرئيسية التي تقصّ الروايةُ حكايتها بقي رهيناً لسياق انهيارات متتالية، لا تتوقّف، بصورة تَظهر كما لو أنّها انهيارات أوسع من الشخصية. انهيارات لم تُتِح للعراقيين أن يصنعوا تجربة عيش طويلة خالية من الحروب.

والرواية بمقولتها العامّة يمكن أن تكون حكايةً عن مقتل الطفولة، وعن هدم البشر. الرواية الصادرة حديثاً عن «دار الرافدين» حكاية شابّ عاشق، لا يحوز سوى الحُبّ، ليس لديه المال أو العمل أو العائلة التي يعتدّ المرء بها، كي يتقدّم إلى الفتاة التي أحبّها.

مع ذلك، يتقدّم عزيز عوّاد لخطبة زميلته في قسم المسرح عدداً من المرّات، يطرده والدها، إلى أن يتدخّل وسطاء بينهما، ويدرك الأب تعلّق ابنته به. وهكذا، يتزوّج العاشقان. ومثل الكثير من قصص الحُبّ التي تحدث في ظروف صعبة، ما إن يرتبط العاشقان حتّى يُقتل الحبُّ بينهما؛ يقتله الفقر، يقتله انعدام المستقبل. والنصّ يطوّر رمزاً لتجسيد ذلك القتل للحُبّ، وهو عدم القدرة على الإنجاب. إذ حتّى عندما يحدث الحمل، يحدث شيءٌ يجهضه، إلى أن يَثبت الحمل في النهاية. ومع الإنجاب في المرة الثالثة يفترق الزوجان، لأنّ ابنهما، الناجي الوحيد من سلسلة تعثّر الإنجاب، يضيع، يخرج من المنزل المتهالك من غير أن يعود، ومن غير أن يعرف أحدٌ طريقه، يتوه من غير أملٍ بالعودة. الطفل الذي يتوه ببساطة ويختفي بصورة غامضة، ليس سوى استعارة عن المستقبل.

حكاية عزيز عوّاد أشبه بالمتتالية التي تسير في سياق واحد، وهو سياقٌ يودي به، وبقصّة حُبّه. إذ ما إن يبدأ عملاً حتّى يترصّد به فشلٌ ما، بدءاً من بيع الأفلام الممنوعة في التسعينيات، إلى تورّطه بكتاب ممنوع في أثناء عمله بمكتبة خاله، إلى تورّطه بالجلوس في ملهىً ليلي. ودائماً هناك من ينقذه، خاله جبران، إلى أن يتورّط بقضية لن يستطيع إخراجه منها، وهي نقله جثّة ليدفنها في «وادي الفراشات»، فيُتَّهم بالمتاجرة بالأعضاء، وهذا يحدث بعد سنوات من الاحتلال.

حكاية تسير في سياق واحد يودي بصاحبها وبقصّة حُبّه

بلا شكّ، وادي الفراشات الذي أعطاه جرجيس اسم الرواية هو صلب هذه الحكاية العراقية، والوادي مكان يَدفن فيه عزيز عوّاد الأطفال مجهولي الهوية - بعد أن استقرّ في العمل سائق تاكسي - وقد عمل لفترة في أرشيف كلّية الفنون، إلّا أنّه فُصل، كما عهدنا في هذه الرواية التي تهتمّ بتهافُت الهزائم، أكثر مما تهتمّ بصناعة معركة فعلية مع الحياة، أو داخل الشخصيّة الواهمة الحالمة. في النهاية، الأرشيف الذي سيملأه عزيز هو دفتر الأرواح، لا أرشيف كلّية الفنون. وسيكتب على صفحات الدفتر قصص أولئك الأطفال الذين غدر بهم العراق، وطنهم. إذاً، إنّها رواية عراقية، عن عراق مات فيه الأطفال بسبب نقص الأدوية، وفقرٍ المشافي في سنوات الحصار، وبسبب الظروف غير الإنسانية، لربما تلك الحكاية العادية عن فشل الزواج، وعن المعارك الوهمية التي لم يتوقّف عزيز عوّاد عن إعلانها على الآخرين؛ لربما عبر تلك الحكاية التي تظهر عاديّة في بلدٍ لم يعرف الاستقرار منذ استقلاله، مع بساطة الموت والفشل العامّ وإعدام المستقبل، ليسا سوى العراق نفسه.

(روائي من سورية)

أطفال عراقيون قرب منازلهم في نهروان العراقية، تشرين الأول/ اكتوبر 2022 (Getty)

أُفق

في الذكرى العاشرة لجريدة العربي الجديد

الحرية صحافةً وثقافة

يُسعدني أن أكون من فريق القسم الثقافي في «العربي الجديد» الذي استعاد تلك الكلمة المنزوية في المعاجم العربية، الحرية، ومارسها كتابةً ورؤية

جعفر العلوني

قد تكون اللغة المُلك الوحيد الحقيقي الذي يتمتّع به الكاتب العربي اليوم، بالمعنى الثقافي العميق للكلمة. تأخذ هذه اللغة شكل الرئة الثانية التي يتنفّس من خلالها الحرية التي عملت المؤسّسات الثقافية العربية والإعلامية السائدة على خنقها. إن لم يتكلّم هذا الصحافي، أو يكتب ذاك الكاتب، بحريّة، فإنّه يبدو وكأنّه لا يتنفّس، بل يتحرّك في سجنَين خانقَين: سجن الخارج؛ الذي تتكفّل الأنظمة العربية بحراسته؛ وسجن الداخل، ذلك السجن الأكثر مرارة، خصوصاً عندما يشعر الكاتب بعدم وجود مكان حرّ يستطيع فيه أن يعبّر عن صوته.

والسؤال هنا هو: كيف يمكن لصحافي أو كاتب يعيش في حالة سجن متواصل أن يفيد وطنه وقضاياه المصيريةً ومؤسّساته المختلفة وثقافته؟ في أحسن الأحوال، لن يستطيع أن يقدّم لهذا الوطن إلّا أعنف حالات الاختناق وأقسى ندوب القيد.

تُشكّل الجريدة، عامةً، المكان الأكثر نشاطاً وتميّزاً لممارسة هذه اللغة- المُلك، مقالات وحوارات وتغطيات وتفاعلاً وإبداعاً وآراء ونصوصاً وتحقيقات. من دون ذلك، تتحوّل الجريدة إلى وسيلة إعلان استهلاكي، أو إلى تنويع آخر على جرائد المؤسسات العربية السائدة التي تعمل وتخطّط وتفكّر من أجل تحويل الثقافة العربية إلى هيكل ضخم من الكلام الذي يحرسه جنود الرقابة. أعني هنا مؤسّسات أنظمة الطغيان، حيث يُصبح للكلام عن السياسة حدودٌ، وللكلام عن الثقافة حدود، وللكلام عن الدين حدودٌ، ويصبح الرأي المختلف مرفوضاً، والفكرة الجديدة مُهمّشة؛ وكذا الأمر عن العائلة، والجسد، والمجتمع، والفنّ، والآخر المختلف، والكتابة الحرّة التي تُزلزل أسس الطغيان.

صار من نافلة القول إنّه يتعذّر التأسيس لمشروع صحافي حديث إلّا استناداً إلى مشروع فكري حديث ومعرفة جديدة. ويتعذّر كذلك تحقيق هذين المشروعين إلّا في إطار ثقافة قائمة بشكل أساسي على قاعدة الحرية، وقبول المختلف، والمُعارض، والجديد.

وفي ظلّ الثقافة العربية السائدة التي اعتادت أن تقدّم فكرة واحدة عن كلّ شيء - فشعرنا واحدٌ، وفلسفتنا واحدة، وسياستنا واحدة، وقائدنا واحدٌ، وصورتنا واحدة، وثقافتنا واحدة؛ تملك تجربة موقع وجريدة العربي الجديد الإمكانيات والمؤهّلات والفرص كي تشكّل ظاهرة رائدة وفريدة في الصحافة والثقافة العربية على السواء، بحيث تخلق نموذجاً جديداً يقوم على قاعدة الثقافة الحيّة التي تعترف بك أنت الذي تعارض أفكار غيرك، وتعترف به هو الذي يعارض أفكارك أنت.

كلُّ ذلك خارج ثقافة التخوين والاصطفافات الحزبية والأيديولوجية ولغة التآمر، خارج الأطر والبنى والعقليات القديمة التي عملت المؤسّسات والصحف العربية التقليدية على ترسيخها، منتجةً بذلك «صحافيين» و«كتّاباً» و«نقّاداً» كتبوا كلاماً كثيراً حول مشكلات معظمها وهمي أو ثانوي، وأهملوا الكتابة عن الجوهر: الإنسان الذي يكتب الكلمة الحرّة التي تزلزل أشكال الطغيان الثقافي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي كلّها؛ الإنسان الذي يناضل من أجل حرّيته. اليوم، في الذكرى العاشرة لإطلاق جريدة العربي الجديد الورقية (سبقها إطلاق الموقع الإلكتروني في ذكرى «يوم الأرض» 30 آذار/ مارس 2014)، يعيش المشروع تحديات عديدة، ولا سيّما في ظلّ الأزمات الكثيرة التي تجتاح البلدان العربية، وعلى رأسها حرب الإبادة الجماعية. من جهة، وبعد عقد من التأسيس هي مهيأة لريادة وترسيخ بنية معرفية جديدة في العالم العربي أساسها حرية الكلمة، فاسحة المجال أمام الكتّاب والصحافيين جميعهم للتعبير عن أفكارهم وآرائهم بما يخدم قضايا الوطن العربي وعلى رأسها فلسطين، ومؤسّسة بذلك لهوية عربية منفتحة تحتضن الأضداد.

ومن جهة ثانية، يجب أن تظلّ، ثقافياً، مختبراً تتحرّك فيه الآراء والنصوص الأدبية العربية المتناقضة والمختلفة والجديدة. من دون ذلك لا تكون الجريدة، أيّة جريدة، إلّا تنويعاً آخر على كثير من الجرائد التي تملأ الحياة العربية بالكلام الفارغ الذي يُرسّخ ثقافة الواحد ويحرس البنى والعقليات التقليدية الصحافية والثقافية.

يُسعدني أن أكون من فريق القسم الثقافي في موقع وجريدة العربي الجديد الذي استعاد تلك الكلمة المُنعزلة والمُنزوية في القواميس العربية: الحرّية، ومارسها واستخدمها، صحافة وكتابة ورؤية وثقافة.

فرصةٌ لظاهرة رائدة وفريدة في الصحافة والثقافة العربية

جناح جريدة العربي الجديد في معرض الدوحة للكتاب

فعاليات

حتى مساء بعد غدٍ الأربعاء، تتواصل فعاليات النسخة السابعة من **المهرجان الدولي للفيلم القصير**، التي افتتحت في مدينة نابل التونسية الجمعة الماضي بتنظيم من «المركز الوطني للسينما والصورة». من بين الأفلام المشاركة: **أنا يا بحر منك** للمُخرجة اللبنانية **فيروز سرحال**، و**الغميضة** للمُخرج الفلسطيني **رامي عباس**.

تنطلق، مساء بعد غدٍ، في «مكتبة الإسكندرية»، فعاليات الدورة الحادية عشرة من **بينالي كتاب الفنّان** وتتواصل حتى الرابع والعشرين من الشهر الجاري بمشاركة فنّانين من الأردن ولبنان ومصر والصين والتشيك وإيطاليا وفرنسا والسويد. يكرّم المنظّمون الفنّان والمعماري المصري **حازم المستكاوي** (1965- 2024) الذي ترك العديد من الأعمال النحتية في القاهرة.

تنظّم «مؤسّسة عبد الحميد شومان» في عمّان، عند السادسة والنصف من مساء بعد غدٍ الأربعاء، حفل إشهار رواية **مدينة التين الأزرق** للكاتب الأردني **سمير القضاة**، بمشاركة الكاتبين **فخري صالح** و**مجدي دعيبس**. تدور الرواية بين القرنين الأول والخامس الميلاديين، وتتناول حياة ثلاثة أشقّاء انتقلوا من بئر السبع إلى البتراء.

حتى 17 تشرين الثاني/ نوفمبر المقبل، تتواصل سلسلة محاضرات عامّة عن **منهاج الوصول إلى علم الأصول** للقاضي البيضاوي أطلقتها «جامعة حمد بن خليفة» بالدوحة. يقدّم السلسلة أستاذ الأديان المقارنة والباحث الباكستاني **دين محمد**، إذ يضيء على أحد أبرز علماء الكلام والنحو في القرن الثالث عشر الميلادي.

ثقافة

تخصّص «العربي الجديد» صفحة «نصوص الحياة والحرب من غزّة» لشعراء وروائيين ومسرحيين وفنانين من قطاع غزة، كي يعبّروا عن تفاصيل الحياة اليومية تحت القصف الإسرائيلي. هي نصوص تقول الحياة والإنسان من قلب الموت

نصوص الحياة والحرب من غزّة

عمل للفنان الفلسطيني
اسامة سعيد

عثمان حسين شاعر

كيف أمضي ليلتي هذه الأيام؟

أجلسُ في شرفة تطل على الأفق المعتم،
لا أرى شيئا، مشدوداً إلى الطنين اللزج،
الزنانة مزروعة في رؤوسنا. بين الحين
والآخر تجعر الزنزانة باستعراض وقح،
وبعد لحظة أسمع صوت طائرةٍ حربية
من بعيد، حتى يعبر صاروخ يضيء عتمة
الأفق، في خلفية المشهد اللامرئي، لنسمع
صوت انفجار هائل، يشتعل ويطلق غيمة
عملاقة من الغبار الكوني.
أن تكتب تحت القصف المدفعي المتواصل
وفي ساعة متأخرة، كمن يرصد الحياة،
وهو يرى ويسمع صرخات الموت عالقة فيه
كذيل نيزك.
أفكّر أن الكتابة فقدتْ فضاءً من فضاءاتها
لصالح الصورة، حيث تفوّقت الأخيرة في
قدرتها على التأثير المباشر، وتوصيل
رسالتها بحرفية لا تستطيع الكتابة
مجاراتها. ومع ذلك، لم تخرج الصورة
عن دورها التوثيقي لكل ما يحدث من
موت ودمار هائلين. وفي الكتابة أيضا،
ما يكتبه الناس عبر وسائل التواصل،
لا يعدو كونه توثيقاً لكلّ ما لم تستطع
الصورة رصده، كالخوف والقلق والألم
والأحلام والكوابيس والخذلان وغيرها من
المشاعر والأحاسيس التي يعيشها الناس
تحت ضغط القتل اليومي لكلّ مظاهر
الحياة بدءا بالإنسان ومروراً بكل مقومات
وجوده، حتى أصغر تفصيلة من تفاصيل
حياته.
عمَّ ستكتب يا من نجوت دون أن تدري،
وتعلم أنّ لا أحد سينجو؟
والكتابة هذه الأيام سباحة في دماء
المذبوحين من الوريد إلى الوريد بشظايا
الأيام السوداء.
صعبة إليك الطريق يا إلهي
لن تصلك رسائل هذا المساء،
لذلك،
لن ترفع البرد،
ولن تأمر الجند بالرحيل،
لن تلبس كابك الأزرق حين تعبر المخيم
وهذا المساء لن ننادي:
الغوث الغوث
خلصنا من النار يا ربُّ.

■■■

ستصرخ يا إلهي من بعيد:
- أين ستهربون؟
وبعد قليل ستسقط إلها رشيقاً،
تدفع منديلاً أبيض في وجه البركان،
وندعو سوياً:
الغوث الغوث
خلصنا من النار يا ربُّ.

■■■

ذهبتَ بنا إلى ما ذهبتَ، كأنك لم تكن إلها
منذ الأزل، ولا تعرف ما الذي ينتظر أبناءك
المنهكين.

■■■

الناس في غزّة تكره الليل، حيث يتجول
الموت في الأزقة والطرقات، يملأ عيونهم
ولا يرونه، يتخطفهم زرافات زرافات دون أن
تكون لهم القدرة على مجادلته أو التملص
والهروب إلى حيث النجاة.
الناس في الحرب يكرهون الليل، وحين
تطبق العتمة عليهم، يتباكون على النهار،
حيث الموت فيه واضح ومرئي، وربما يكون
مفهوما رغم سورياليته.

■■■

أحبُّ الموسيقى، وأحب الغناء، و أحيانا
يرقّصني الطربُ فتتملكني النشوة.
فكرتُ أن أخرج قليلاً عن السياق المفروض
على البلد، بانقطاعي عن كل وسائل
التواصل وهيأت نفسي لسماع الموسيقى
والتحليق معها، وسأختم فسحتي بأغنية
«سلو قلبي»، حيث لم أسمعها منذ سنوات
طويلة، في محاولة لترميم روحي من
قروحها الدامية.
صوت انفجار عديم الوصف، هز البيت هزة
زلزالية لذيذة وكأنك في قارب. ارتمت بهية
على صدري، وهي رفيقتي أيام الحرب،
لا تفارقني إلا وقت ما تنزل إلى الشارع
لتلعب مع بنات الحارة ألعاب الحرب
البريئة. من شدة الانفجار أعتقدتُ أن بيت
جاري كان هدف الصاروخ، لكنه كان أبعد
بثلاثة جيران.
العناية الإلهية تتدخل لتأجيل الأعمار
إلى أجل ما، وأحياناً تمارس مهامها
بحرفية عالية في حصاد الأرواح بالجملة،
وبالمئات في بعض المجازر الدامية. حالة
الارتباك والخوف الغامض يدفعان أهل
البيت للتحرك في كل الاتجاهات، تتبخر
فكرة الموسيقى وترميم الروح، وقبل أن
ينقشع الغبار الكوني، أندفع نحو حيوات
تتمزق عند الجيران.

أن تكتب تحت القصف المتواصل، كمن يرصد الحياة وهو يرى ويسمع صرخات الموت عالقة فيه كذيل نيزك

■■■

الدخول الى رفح من أبواب مختلفة
ما أوسع المدينة الصغيرة ذات الجديلتين،
وهي تعبر في ذاتها خوفا على خطى
المسرنمين في حضنها الجريح.
المشهد لا يتكرر، هو ممتد ولا ينتهي
بخروج المنتصر منتصراً. لا شيء يتكرر
أيتها الحياة، حتى وأنت ترقبين وتشفقين
على ذات الجديلتين.

■■■

منذ ستين عامًا لم أغادر مدينة رفح
إلا لسنوات متفرقات، أعرف صخبها
وهدوءها، كنت أتسلّل إليها كلما تطلب
الأمر صخباً أو هدوءاً، وكانت تمنحني ما
أريد.
أزور رفح بين يوم وآخر هذه الأيام ، فأنا
نازح خارجها، أدخل إلى قلبها وكأنني لا
أعرفها، أتجول في شارعيها الرئيسيين
وبعض الشوارع الفرعية، لكن هذه الشوارع
القليلة ورغم تواضعها تحتضن نحو
مليوني إنسان نزحوا من مخيمات ومدن
كوكب غزة في مشهدية لم تحدث من قبل،
ولن تتكرر في يوم ما، فليس هناك عدو
أكثر انحطاطاً سيأتي في يوم ما أكثر
من هذا العدو، ومع ذلك، فالمشهد اليومي
لمدينة رفح تتجاهله كاميرات التلفزة
قاطبة، فهو يشكل حرجاً شديداً للإنسان
أمام نفسه، ولا أحد يود أن يرى نفسه كم
هو قبيح وقاس.
هذه الأعداد الهائلة من الضائعين في
شارعين رئيسيين وبعض الشوارع الفرعية
ومنذ الساعات الأولى من النهار، تزحف
نحو ذواتها فتملأ ثلاثة مفترقات: العودة
والشرقي والنجمة، وتزداد الأعداد كلما
تقدم النهار إلى الحد الذي يجعل حركة
الفرد من مكانه أمرا بالغ الصعوبة.
وحين تتحرك، تدور حول نفسك، وعلى
نواصي مفترقات المدينة وامتداداتها
يقف البائعون ببضائعهم القليلة التي
لا تتعدى المعلبات المعدنية بأنواعها
وأحجامها المختلفة كأغذية تستخدم
عادة في الكوارث حيث يتم توزيعها على
الناجين من متضرري الحروب.
رفح تحتضن النازحين إليها وتعلم أن
حضنها يتسع ويتسع.

■■■

أيها الكلب لا تنهش جثتي، فأنا شهيد
وكفى، لا أعرف شيئاً عما أوصلني إلى هذا
الوصف، ورضيتُ.
جعتُ مثلك أيها الوفي، لكنني لم أنهشك.
إياك إياك، فلعنتي ستسكن أحشاءك.
اترك جثتي تتحلل وامضِ جائعا، خير من
لعنتي أيها الكلب الوفي.

عمل للفنانة الفلسطينية
تمام الأكحل

سماح أبو جزر كاتبة

أرض الجوافة

من لا يملك أذرعاً لا يجيد الاحتضان، الخيمة
مبتورةُ اليدين، أنا في جوفها أحاول لملمة
نفسي دون ماء. بعد عشر سنوات من اليتم
أراد الله تمليكنا قطعة أرض في منطقة
تسمى مواصي رفح. أشبه بشط بحرٍ هارب
دون الماء يهرب إلى الوراء كثيراً كرجوعنا
تماماً إلى الوراء مجرّدين دون إنجازات
تلفظ ولا تُكتب، بعد اثنين وعشرين عاماً
من وفاة والدي، نحن مضطرون إلى العيش
فيها دون ماء أو كهرباء وبلا بيت. أرض
قاحلة جرداء، احتضنت الكثير من النازحين
من خالاتي وأبنائهن وأخواتي وأزواجهن
وإخوتي وزوجاتهم. استقالت أشجار
الجوافة ذات القوام الرشيق والثمار الحلوة
من وظيفتها حيث كانت تزيّن كل شبر
في الأرض منذ أعوام طويلة، وظفوها في
إشعال النار لطهي الخبز.
بعدما اجتمعت نيران العدو ونيران
الشمس وانضمت نيران الطهي، جفّت
أجسامنا من حر النهار، عندها فشلت في
التأقلم مع الخيمة والاعتياد على حياة
البداوة. بعدما فارقتني وسادة نومي،
بدأ عظمي يتقوّس من النوم على الأرض،
لذلك لم أستطع عليها صبرًا دون ماء،
فقررت الانتقال منها إلى بيت أختي في تل
السلطان وهكذا تم نزوحي الثاني.

■■■

لن يكتمل الأمان في المنطقة ولن أجرؤ على
الاعتراف بما حدث هناك.
نحن منفيون عن العالم بعدما انقطع
الإنترنت عن المنطقة، لا أدري ما الفرق؛ نحن
نعيش الأخبار المعروضة على الإنترنت بل
نحن الأخبار بحد ذاتها. كانت ليلة تطل
على نافذة حرب يملؤها الرعب، ونافذة
أخرى يملؤها الألم بسبب طبيعتي الأنثوية؛
إذ اتفقت آلام الحيض الشهرية مع آلام
النزوح على جسدي النحيل، لم يعد يقوى
على السير مدة طويلة ولا حتى جر متاعي.
في سواد الليلة الأخيرة في تل السلطان،
استيقظت الطائرات قبلنا دون فرق يذكر
عربدت على المنطقة وبدأت بإسقاط
الصواريخ والقصف العشوائي على
المباني السكنية في المدينة. «الكواد كابتر»
تطلق صفاراتها الملتهبة على كل من
يغادر منزله. واصلت تجوالي في الشوارع
ولوهلة شعرت بأننا محاصرون، الأمر
الذي أكده زوج أختي قائلاً: لن نستطيع
الإفلات هذه المرة!

■■■

مع بداية انسلاخ النهار من الليل وانبثاق
الضوء، بدأنا بجمع الأمتعة وكل ما هو
ضروري لحياة جديدة. وصل التوكتوك
وقمنا بتحميل كل ما يلزم عليه. سرنا
برفقة نازحين آخرين إلى أن وصلنا إلى
بركسات الوكالة (منطقة آمنة تضم الكثير
من النازحين). ولكن حتى بركسات الوكالة
قصفت عدة مرات، شاهدت آثار القصف
على وجوه من بحثوا عن صدر الوطن
الآمن، لكن فقد النازحون الأمل بعد قصف
البركسات عدة مرات، لذلك فكوا الخيم
وحملوا الأمتعة ورحلوا.
كنت أسير بلا حذاء، فقررت أن أول شيء
سأفعله هو أنني سأشتري حذاءً رغم أن
الأحذية اختفت من السوق. هربتُ وشردت
إلى عالم الخيالات الوردية لعلي ألتقط
أملاً يختبئ في جعبة الأيام القادمة
تحجبه عني الحرب. أيقظني مزمار سيارة
فارغة، شعرت بوخزة أقدامي تُذكرني
بأنني نازحة، أوقفت السائق قائلة: شارع
الشاكوش؟!
رد بصلافة: الراكب خمسة عشر شيكلاً.
تحسست جيبي لم يكن فيه سوى عشرين
شيكلاً فقط. حاولت مساومته أجابني
بتنهيدة عالية بأن البنزين انقطع من البلد
وما يتوفر سعره مرتفع جداً. قررنا أن
نواصل الطريق سيراً على الأقدام. واصلنا
بجر أحدنا الآخر. اشتدت الشمس وبدأنا
نشعر بشدة وحدة ألم الأقدام والعطش
والجوع. سرنا خائفين إلى أن وصلنا
إلى مناطق الأمان كما سموها (شارع
الشاكوش). يجلس الباعة على جوانب
الطرقات، يجلس الواحد منهم بمعلبات أو
بسكويت أو حتى قطع من الأواني منتهية
الصلاحية. اشترينا البسكويت. أجهزت

لا أدري ما الفرق؛ نحن نعيش الأخبار المعروضة على الإنترنت بل نحن الأخبار بحد ذاتها

كل يوم هو يوم المبيت الأول لي بين أحضان الخيمة لأنني بكل بساطة لم أعد أشعر بالأيام والتواريخ

الرضيعة «مسك» على نصفه والنصف
الآخر تشاركنا فيه جميعنا. سرنا مسافة
طويلة بعد شارع «الشاكوش» لنصل أخيراً
إلى «بير 22» حيث أرض الجوافة.

■■■

مما علق في ذهني من ذلك اليوم، حين انتقلت
إلى أرض الجوافة، كان الشجار الذي حدث
بين عائلتين من عائلات رفح الكبيرة أو في
القطاع بسبب تقاطع الشاحنات في الطريق،
وبسبب زوبعة التنقل الكبيرة التي تحصل
في كل مكان. أناس نازحة وأخرى تنتقل،
تقاطعت الشاحنات والعقول على باب أرض
الجوافة. تزامن هذا مع القصف العشوائي
وبدأ إطلاق النار بين العائلتين. طلقات النار
تطير حرة تشعر بفرحتها أثناء سماعك
أصوات الناس الخائفة. لم أسمع إطلاق النار
أثناء هروبنا نحن النساء إلى بيت الجيران
بل سمعت صوت خاطفة «روزانبل».
مرة بعد أخرى، بقلب يملؤه عزاء الدنيا،
رجعت إلى الخيمة نفسها، إلى الحرارة
المرتفعة، وإلى لدغ الحشرات وإلى الحكّة
المستمرة، وإلى تساقط الشعر وإلى اسمرار
البشرة. رجعت إلى الخيمة وما زالت
صديقتي شيماء من جنين تواصل إرسال
رسائل نصية لي عبر الهاتف المحمول،
رسالة مطمئنة وأخرى محذرة، تسألني عن
حالي بتردد. كنت قد اعتدت أنا وشيماء أن
نتهاتف كل يوم جمعة عند الرابعة تماماً
عبر خاصية الفيديو. اشتقت إلى مكالماتي
تلك مع شيماء. أردّ عليها بحرارة أنا بخير
ولكنني دون ماء وأتمنى الاستحمام، أرى
منها إجابة طويلة كلها دعاء وفضل صيام
ذي الحجة، أجيبها ما زلت في الخيمة وهذا
لن يمنعني من الاحتفال بيوم التروية.

■■■

نعم، فللمرة الأولى بعد مرور العديد من
السنوات أحتفل بالعيد دون صيام العشرة من
ذي الحجة . لدي روح ما زالت تتنفس البارود
وتغتسل برمال صحراء رفح. كل يوم هو يوم
المبيت الأول لي بين أحضان الخيمة لأنني
بكل بساطة لم أعد أشعر بالأيام والتواريخ،
هو يوم واحد متصل طويل كله مشقة. أنا
عبارة عن مكعبات من المشاعر المتناقضة لا
يجوز تركيبها بعضها فوق بعض، أشبه
الفكرة التي تقفز بين السطور لا هداية لها.
رجعت الى أرض الجوافة مرة أخرى بقلب
يملؤه عزاء الدنيا. ما زلت أقطن في خيمة وما
زلت أحتفل بيوم التروية، فللمرة الأولى بعد
مرور العديد من السنوات أحتفل بالعيد دون
صيام العشرة من ذي الحجة . أيجوز الصيام
لي، وأنا بروح منهكة ترتجي الله أن يبقي
من فقدت بخير وبجسد هزيل تتأمل الجميع
مودعة أرواحاً تتحرك أمامها وكلها أمل بأن
تبقى؟ أنا والجميع حولي نتأهب لمواجهة
نزوح آخر أو فقد أو حتى مجاعة مرتقبة
تحت أشعة فوق بنفسجية حارقة. أدركت الآن
أن الغلاف الجوي ترك سماءنا وحيدة.

■■■

أيجوز لنا الصيام ونحن لا طاقة لنا به!
المبيت الأول لي بين أحضان خيمة لا ترجو
شفاعة أحد، متمردة حارقة تحفها شمس
الصيف الصفراء كان يشبه مبيتي في القبر،
صحيح أنني لم أخض تجربة الموت بعد
ولكنني أخوض أصعب منها إذ أموت كل
ليلة من حر النهار دون ماء. في أول أيام عيد
الأضحى، أخذت طائرات الإغاثة تسقط علينا
مساعدات من الجو. الهدايا والموت يسقطان
من السماء. سقطت مظلة فوق خيمة إحداهن
وهي جالسة فيها ترتجي الأمان من العدو،
لم يخطر ببالها أن شيئاً مثل هذا سيحدث
حيث كانت تجلس تُطعم صغارها مما توفر
عندها حين سقط صندوق خشبي تحمله
مظلة أنزلتها طائرة ترمي بالمساعدات من
الجو. سقط الصندوق فوقها تماماً، لحق
الناس بالصندوق داخل الخيمة. كانت المرأة
تحت الصندوق والناس يتكومون حولها.
يا للعيد! ويا للمساعدة القاتلة هذه!